التحصينات الطبيعية للمدن الزيرية بالمغرب الأوسط
مدينة أشير أنموذجا

د/- خير الدين بن تارزي
المدرسة العليا للأساتذة
- بوزريعة - الجزائر

الملخص:

تتناول هذه الدراسة التحصينات الطبيعية للمدن الزيرية بالمغرب الأوسط، وبصورة أخص التحصينات الدفاعية لمدينة أشير الجزائرية التي تعد من الحواضر التاريخية الهامة، التي تتطلب منا الوقوف عندها، لما تتوفر عليه من آثار وشواهد تدل على أصالة المنطقة وعمقها التاريخي وأدوارها الحضارية.

احتلت مدينة أشير موقعا مهما في قلب المغرب الأوسط واتّخذت من موضعها الكائن على جبل الكاف الأخضر مكانا استراتيجيا سيطرت به على منطقة الهضاب العليا وعلى السهوب الجنوبية، ولتكون ملتقى لأهم المسالك التجارية في العصر الوسيط، كما أنّ موقعها يعد أنموذجا للتحصينات الطبيعية ببلاد المغرب الأوسط.

الكلمات المفتاحية:
التحصينات الدفاعية؛ المغرب الأوسط؛ أشير؛ الدولة الزيرية.

Résumé:

Cette étude traite des fortifications naturelles des villes zirides au Maghreb central, notamment la fortification défensive de la ville algérienne d'Acher, qui est l'une des villes historiques importantes du tell au moyen Age, en raison des effets et des preuves qu'elle a sur l'originalité de la région, sa profondeur historique et ses rôles culturels.

La ville d'Acher occupait un emplacement important au cœur du Maghreb central, et de son emplacement sur la Montagne d'El Kef lakhdar, elle occupait une place stratégique pour contrôler la région des hauts plateaux et des steppes méridionales, et être un point de rencontre pour les routes commerciales les plus importantes du moyen Age, et sa fortification défensive est un modèle pour les fortifications naturelles dans les pays du Maghreb central.

Mots clés : fortifications défensives ; Maghreb central ; Acher; État ziride.

مـــقدمـــــة:

كان لقبيلة صنهاجة بالمغرب الأوسط حواضر كبرى يشرف بعضها على الشريط الساحلي للبحر المتوسط، فيما يقع بعضها الآخر وينتشر في المناطق الداخلية عبر الجبال والتلال، ومن أهم هذه الحواضر التي أسهمت صنع تاريخ المنطقة مدينة أشير الجزائرية.

وتعد مدينة أشير من الحواضر التاريخية الهامة لقبيلة صنهاجة، لما تتوفر عليه من آثار وشواهد تدل على أصالة المنطقة وعمقها التاريخي وأدوارها الحضارية.

ناهيك عن ذلك فإن المدينة تعد نموذجا للمدن ذات التحصين الطبيعي وقاعدة حصينة لدرء الأخطار الخارجية، فنشوب الحروب بين قبيلتي زناتة وصنهاجة، دفع بزيري بن مناد إلى تشييد المدينة لما تمتاز به من حصانة طبيعية ومقومات أخرى جعلت منها أيقونة المدن الزيرية بامتياز.

فما طبيعة التحصينات للمدن الزيرية بالمغرب الأوسط؟ وما موقع مدينة أشير من هذه التحصينات؟ وإلى أي مدى ساهمت مدينة أشير في درء الأخطار الخارجية لقبيلة صنهاجة؟

1- نسب الزيريين:

يعود نسب الزيريين إلى قبيلة صنهاجة، وهي قبيلة بربرية ترجع أصولها إلى العصور التاريخية القديمة بشمال افريقيا، وتروي المصادر التاريخية أنّها كانت تعيش حياة متنقلة من منطقة لأخرى في مجال جغرافي يمتد من الحدود الشمالية الشرقية لجبال الأوراس شرقا إلى مدينة تنس غربا.

وقبيلة صنهاجة قسمان، صنهاجة الشمال والّتي يعود إليها نسب الحماديين والزيريين إلاّ أنّه يكاد يكون غير واضح شأنه في ذلك شأن بقية القبائل البربرية، وصنهاجة الجنوب الّتي يعود إليها الفضل في تأسيس دولة المرابطين.

يذهب ابن خلدون إلى القول أن هذه القبيلة ونقصد هنا قبيلة صنهاجة الشمالية تمثل ثلث بربر المغرب[1]، وكانت منتشرة في مختلف مناطق بلاد المغرب بين سهولها وجبالها، والجدير بالذكر أنّ هذه القبيلة لم تبرز على مساحة الأحداث إلاّ في مطلع القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي، حيث لم يرد لها ذكر في المصادر التاريخية قبل هذا القرن، ومع ذلك فقد كان لها نشاط كبير جعلها تبرز كقوة سياسية مع مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

ورغم تباين كتب الأنساب في نسبهم واختلاف المؤرخين إلا أن ابن خلدون يرى أن قبيلة صنهاجة تتكون من أكثر من سبعين بطنا[2]، لا يسع المجال هنا للإحاطة بها كلها، وإنّما ننوه إلى تلك القبيلة التي لها علاقة مباشرة بتأسيس الدولتين الزيرية والحمادية، وهي قبيلة تلكاته، ولما كان لها من دور في تعمير بلاد المغرب الأوسط، في حين أنّ بقية القبائل الأخرى كانت تقطن المناطق الصحراوية، أضف إلى ذلك ما كان لها من دور بالغ الأهمية في تشييد المدن الصنهاجية الّتي يدور حولها موضوع هذه الدراسة.

إنّ هذه القبيلة لم تكن لتبرز على ساحة الأحداث كما سبقت الإشارة لذلك في القرن الرابع الهجري لولا جهود قائدها زيري بن مناد التلكاتي الصنهاجي الّذي تبنى القضية العباسية بعدما أسندها إليه الحكام الأغالبة في تونس.

استقرت قبيلة صنهاجة في إطار جغرافي يتميز بصعوبة مسالكه وبوعورة تضاريسه المتكونة في الغالب من الجبال والتلال والجفاف، ورغم قلة التساقط المطري الّذي ميّز المنطقة إلا أن زراعتهم كانت تعتمد على مياه الأمطار، الأمر الّذي جعلهم يستقرون في تجمعات بشرية صغيرة ولا ينتقلون إلا عند الضرورة القصوى كالبحث عن الغذاء لمواشيهم، ولما كانوا يقطنون المناطق الجبلية فكانوا يعتمدون عليها في الرعي أثناء فترات الصيف ويضطرون للنزول إلى المناطق السهلية الجنوبية القريبة منهم أثناء فصل الشتاء بحثا عن المراعي وهروبا من قساوة البرد في المناطق الجبلية.

تمكنت قبيلة تلكاته بفضل قوتها وحكمة شيوخها وشجاعتهم أن توحد فخوذ قبيلة صنهاجة حولها ، فمناد بن زيري يعد أول شخصية زيرية ظهرت زعامته بقوة ، وهو الّذي تمكن من توحيد هذه القبيلة والدفاع عن أراضيها ضد الغارات المتكررة لقبيلة زناتة ، كما تمكن أيضا من بناء علاقات طيبة مع الدولة الأغلبية مقدما لها خدمات جليلة قوبلت بمساعدات مالية وظفها للاستيلاء على منطقة جغرافية واسعة أصبحت خاضعة لسلطة قبيلة تلكاته، وهو الأمر الّذي رسخه من جاء بعده من الحكام ، فقد أدت هذه الضرورة الملحة بابنه زيري بن مناد إلى التحالف فيما بعد مع الفاطميين بمبادرته في نجدتهم في الحصار الذي ضربه يزيد بن مخلد بن كيداد على مدينة المهدية من أجل دعمه في إبقاء سيطرة الزيريين على هذه الرقعة الجغرافية الواسعة ومساعدته في تحصين مدينة أشير.

لقد انتقل الزيريون من حياة التنقل والترحال إلى حياة استقرار في تجمعات بشرية صغيرة، وسرعان ما جعلهم هذا الاستقرار الّذي نعموا به يشيدون مدنا فاقت سمعتها بلاد المغرب الأوسط، ومع الأسف فإن أخبار هذه المدن تعج بها كتب التاريخ والجغرافية، فإنّها في الواقع لم يبق منها اليوم إلا بعض الأجزاء والخرائب الّتي تدل على الماضي المجيد لهذه الدولة.

انعكست الظروف السياسية الّتي مرت بها الدولة الزيرية على الحياة السياسية وعلى المدن الّتي شيدوها في بلاد المغرب الأوسط، فقد أدى الخوف من الغارات الّتي شنتها عليهم قبيلة زناتة وحلفائها إلى اختيار المواقع المحصنة طبيعيا لإنشاء مدنهم إن كان ذلك التحصين من جميع الجبهات أم من جهة واحدة، وقد يكون هذا التحصين الطبيعي إمّا قمة جبل أو وادي أو سفح جبل أو غير ذلك من أنواع التضاريس، ولنا في مدن أشير، المسيلة وملیانة وبجاية أحسن مثال على ذلك.

2- شروط تأسيس المدن:

الحقيقة أنّ المدن تختلف وتتنوع حسب ارتباطاتها بالوظائف الخاصة بها وظروف نشأتها ونوعية مواقعها ومواضعها وهذه الأمور مجتمعة قد تؤدي دورا فعالا في تطور المدينة وتبوئها مكانة مهمة بين بقية المدن إن وظفت على أحسن وجه، وقد ورد في كتب التراث الاسلامي المهتمة بالعمران عدة مفاهيم للمدن وعدة شروط رأى علماء الأمّة ضرورة الأخذ بها عند اختيار مواقع المدن وتخطيطها، فابن الربيع مثلا في نقله عن عبد الستار عثمان[3] حدد ستة شروط من الواجب مراعاتها عند اختيار موضع المدينة نذكر منها:

- **سعة المياه المستعذبة:** ويقصد بها وفرة المياه الغذبة.

- **إمكان الميرة ووفرتها:** ويعني به أنّ وفرة الغذاء حول هذا الموقع شرط أساسي في ازدهار الحياة الاقتصادية للمدينة.

- **اعتدال المكان وجودة الهواء:** أي أنّ لا يكون المكان موبوءا وبه هواء عليل يحافظ على صحة السكان والزيادة في رفاهيتهم.

- **القرب من المراعي والاحتطاب:** والقصد منه توفير المراعي للحيوانات التي تعد من العوامل الأساسية التي يقوم عليها اقتصاد المدينة، بالإضافة إلى الغابات التي تستغل أشجارها كوقود في الاستخدامات اليومية أن كانت منزلية أو صناعية.

- **إمكانية الدفاع:** إذا كانت الشروط السالفة الذكر قد مررنا عليها بسرعة لأنها لا تدخل في اهتمامات هذه الدراسة، فإنّ هذا الشرط الّذي يمثل لبها يجب أن نتوقف عنده بعض الشيء ولأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الدراسة وهي التحصينات الطبيعية.

والحقيقة أنّ هذا الشرط احتل مكانة هامة بين بقية الشروط ذلك أنّ الزيريين أولوا أهمية قصوى لتحصين مدنهم نظرا للظروف السياسية الّتي كانت تواجه منطقة المغرب الأوسط ، وإن كان ذلك على حساب بعض الشروط الأخرى ، فمثلا أخذ هذا الشرط أيضا بعين الاعتبار في مدينة المسيلة الّتي أسست على الضفة الغربية لوادي المسيلة المعروف بوادي القصب ووادي السمر حسب فيرو[4]، ولا يجب أن نمر على هذا الشرط دون الإشارة إلى قلعة بني حماد الّتي أنشئت على مرتفع جبل كيانة أو المعاضيد حاليا، هذا الموقع الاستراتيجي الّذي يسمح للحماديين من مراقبة حركة قبائل زناتة في اقليم الحضنة[5] ، وكذلك يزيد في تحصين المدينة .

وقد اتخذت مدينة أشير ونظيراتها المدية ومليانة من المناطق الجبلية مواقع لها محصنة جزئيا بالتضاريس الطبيعية، والغاية من إنشائها في هذه المواقع المحصنة طبيعيا هي الزيادة في الكفاءة الدفاعية عنها حيث يكفي عدد قليل من الجند لصد الهجومات التي تستهدفهم.

يستخلص مما سبق أن بلاد المغرب في العصر الوسيط لم تكن تشيد هكذا اعتباطيا، وانمّا يتم التخطيط لها بعد دراسة تنطلق من الظروف السياسية التي تميز المنطقة في تلك الفترة التي كانت تمر بها بلاد المغرب من حروب بين القبائل والدول قصد السيطرة على مساحات من أراضيه.

ومن هذا المنطلق كان القادة الذين يرغبون في إنشاء عواصم لدولهم يختارون لها المواقع الاستراتيجية لحمايتها من غارات الأعداء فكانت هذه المدن غالبا ما تنشأ في مواقع تمتاز بتحصيناتها الطبيعية لتسهيل عملية الدفاع عنها أثناء الحصار الذي قد يضربه عليهم أعدائهم ونحاول من خلال هذه الدراسة التي خصصناها لمدينة أشير الزيادة في توضيح هذه الفكرة.

3- التحصينات الطبيعية لمدينة أشير:

تعد منطقة أشير الجزائرية من الحواضر التاريخية الهامة، التي تتطلب منا الوقوف عندها، لما تتوفر عليه من آثار وشواهد تدل على أصالة المنطقة وعمقها التاريخي وأدوارها الحضارية التي تستوجب البحث فيها والتدقيق كونها تمثل مظهرا مهما للتراث المحلي والانساني وموروث ثقافي شعبي بامتياز.

3-1/ جغرافية منطقة أشير:

قبل التطرق للتحصين الطبيعي الدفاعي لمدينة أشير كان لابد من الإشارة أولا إلى جغرافية المدينة وخلفياتها التاريخية الموضح في الآثار التي لا تزال تشهد على تاريخ وماضي المنطقة.

تقع مدينة أشير على المنحدر الشرقي لجبل التيطري كما كان يعرف في القديم أو جبل الكاف الأخضر حاليا الممتد من الشرق إلى الغرب وتدخل ضمن سلسلة الأطلس التلي، ويمتاز هذا الجبل بكونه كتلة صخرية متوسطة الارتفاع، ويحدد موقعها فلكيا مابين خطي طول 0^0 و57^0 شرقا ودائرتي عرض 35^0 و55^0 شمالا، وبارتفاع يقدر بـ: 1467م على مستوى سطح البحر.

وتقع على بعد 150 كلم جنوبي الجزائر العاصمة، وبالضبط قرب مدينة عين بوسيف بولاية المدية حاليا، وبالتحديد فهي تقع شمال قصر البخاري قرب ثلاثة دوائر والجنوب الشرقي من مدينة البرواقية، وغربا جبل شعبة.

2-3/ تأسيس مدينة أشير:

اختلفت المصادر التاريخية حول تاريخ تأسيس مدينة أشير فالبكري الذي كتب في القرن الخامس الهجري وهو يعد الأقرب والأقدم إلى تاريخ إنشاء المدينة والذي يمكن أن يكون كتابه أصح هذه المصادر على الرغم من عدم زيارته لبلاد المغرب واعتماده على الرواية الشفوية للزائرين للمنطقة ، فيذكر أن الذي أنشأ مدينة أشير هو زيري بن مناد[6]، أمّا النويري[7] الذي عاش بين القرنين السابع والثامن الهجريين والذي يبدو أنه اعتمد على نص البكري وبعض النصوص التاريخية الأخرى اختلطت عليه الأمور فتارة يتحدث عن تأسيس مدينة أشير وتارة أخرى عن مدينة بنية القريبة منها وربما أنه كان يجهل وجود مدينتين قرب بعضهما البعض، وقد جاء بعدهما ابن خلدون[8] الذي لم يأت بجديد في موضوع تأسيس المدينة ومؤسسها.

3-3/ آثار مدينة أشير:

تتكون مدينة أشير من ثلاث تجمعات سكنية هي منزه بنت السلطان، أشير وبنية، فأطلال المدينة الأولى تقع على جبل الكاف الأخضر الشرقي، أما مدينة أشير فهي تستند إلى السفح الجنوبي للكاف الأخضر مقابل مدينة بنية التي لا تبعد عنها إلا مسافة 2.5 كلم، أما المدينة الأخيرة بنية فهي تقع على السفح الشمالي الغربي لجبل الكاف الأخضر.

إنّ تاريخ المدن الثلاث يرجع بدون شك إلى نفس الفترة التاريخية، كما أنّ الانتشار الواسع الملاحظ على بقايا أطلال المدينتين يدل على أنهما كانتا كثيرتي السكان، وأنه بإمكاننا اليوم استنادا إلى شساعة المساحة التي يحيط بها السور أن نتخيل العدد الهائل لسكان المدينة، ممّا يجعلها مدينة تضاهي الحواضر الاسلامية في تلك الفترة.

3-4/ تحصين مدينة أشير:

كان لتأسيس مدينة أشير والأمن الذي وفره لها مؤسسها زيري بن مناد بواسطة جيش تميز بطاعته العمياء له، والذي مكنه من توحيد هذه القبيلة وتنظيمها تنظيما محكما، وإعدادها إعدادا جيدا لينقلها من التنظيم القبلي إلى تكوين دولة تضاهي في تنظيمها بقية الدول في تلك الفترة، ولينتقل هو من شيخ قبيلة إلى مرتبة الأمير أو السلطان، ويتمكن من بسط نفوذه على أراضي صنهاجة.

وقد جاء زيري بن مناد بالبناة والنجارين والعمال في مختلف الاختصاصات من مدينة المسيلة وحمزة (البويرة حاليا) وطبنة وطلب من الخليفة الفاطمي أن يمدّه بمهندس معماري يمتلك خبرة تفوق خبرة كل مهندسي افريقية وطلب منه أيضا أن يزوده بمواد البناء ليبني مدينة ستصبح عاصمة دولته الناشئة، ولم يكتف بذلك بل توجه بعد انتهاء عملية البناء إلى طبنة والمسيلة وحمزة ليستقدم منها الطبقات الفاعلة من السكان إلى عاصمته الجديدة [9].

لم يكن زيري بن مناد ليقوم بهذا العمل لولا الأمن الذي توفر له أولا عن طريق جيش قوي ومنظم، وثانيا الحصانة الطبيعية التي

وفرها هذا الموقع لمدينته الجديدة فقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن هذه المدينة لا يستطيع أحد أن يدنو منها أو أن يدخلها إلا من الناحية الشرقية وأن عشرة من الرجال الأقوياء بإمكانهم الدفاع عن هذه الجهة [10].

يمتاز موقع المدينة بحصانته الطبيعية الهائلة، فالمدينة شيدت على قمة جبل تحيط به الفجاج العميقة إلى درجة يمكن فيها في كثير من المواضع المحيطة بها الاستغناء فيها عن بناء السور الذي كان يمثل الوسيلة التحصينية بامتياز في لأغلب المدن الإسلامية في بلاد المغرب، ذلك أنّ هذه المدينة لا يوجد بها مسلك يربطها ببقية العالم الخارجي إلا من الناحية الشرقية، أمّا بقية الجهات فكانت الصخرة الّتي شيّدت عليها المدينة ترتفع عن سطح الأرض بارتفاعات هائلة لا يستطيع أحد تسلقها.

ونظرا لميزة هذا المكان فقد اكتفى الزيريون بتحصين بعض النقاط الضعيفة طبيعيا من حيث التحصين ببناء أسوار لسد هذه الثغرات، وأنّ الذي زاد من أهمية هذا المكان احتواءه على عيون داخل المدينة كانت المياه المنهمرة منها تكفي لسد حاجيات المدينة، ممّا لا يضر بها أثناء فترات الحصار، وفي ذلك يقول البكري:" وهي مدينة جليلة حصينة يذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما.[11]

الخاتمة:

خلاصة القول أنّ مدينة أشير الّتي احتلت موقعا مهما في قلب المغرب الأوسط واتخذت من موضعها الكائن على جبل الكاف الأخضر مكانا استراتيجيا سيطرت به على منطقة الهضاب العليا وعلى السهوب الجنوبية، كما أهّلها هذا الموقع لأن تكون ملتقى لأهم المسالك التجارة في العصر الوسيط، فلولا حسن اختيار هذا الموقع من طرف مؤسسها- ربما أنه لم يتفرد بالرأي وإنما استشار أهل الاختصاص في ذلك - لما كتب لها أن تحيا زهاء قرن من الزمن.

الهوامش:

1- بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب العلمية، بيروت، 19..، ص 179.

2- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الاسلامية، مجلة المعرفة، الكويت، 1988، ص....

3- عيسى بن الديب، مبارك بوطارن، مسعود مزهودي، الحوافر والمراكز الثقافية في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، 2007، ص 110.

4-M.L. Ferraut : Histoire des villes de la province de Constantine. Recueil des mémoires de la société archéologique de la province de Constantine.15 vol .1871-1872.p 372.

5-Paul Louis Combuzat. L'évolution des Cités du en Afrika du …..siècle. Tome2. O.P.U. Alger.1986. pp161-162.

6- البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، باريس، 1965، ص 60.

7- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج6، دار الكتب المصرية، 1923، ص 485.

8- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 181.

9- المصدر نفسه، ص 181.

10- البكري، المصدر السابق، ص 60.

11- المصدر نفسه، ص 60.